الفلك المشحون

نعم تستطيع وأنت الإنسان البسيط أن تقتدى بالأنبياء ، وأولى العزم من الرسل .

تتدرّب على أن تقيس بمقياس الدين ، وتقارن بين موقفك وابتلاء الأئمة والصالحين .

وترقب مشهد النهاية للمسرحية الخالدة ، وخاتمة الصراع بين الأقوام المتكبرين والملوك العالين فى الأرض والضالّين .

وتنظر كيف تكون عاقبة المتّقين .

تبهرنى دائمًا قصّة سيدنا نوح أقدم الأنبياء وأطولهم عمرًا .. وأكثرهم إلحاحًا ودعاءً لقومه ، ومجادلتهم وإقامة أسباب الحوار معهم حتى يتبّعوا طريق الخير والهدى ويدعوا ما هم فيه من إثم وضلال

وكِبْرٍ مقيت. ينصح لهم، ويبلّغهم رسالات ربّه، ولا يريد منهم أجرًا.

كان طويل الصبر والنفس، يقوم على الدعوة ليلًا ونهارًا، ولم يزدهم دعاؤه إلّا فرارًا، حتى كاد ييأس ويداخله الهمّ والحزن، لكن الله لقّنه القاعدة الأولى لمبدأ الصمود والثبات ألّا ييأس أو يحزن حتى لو اتبعه قليل.

ولهذا قصّ على نبيّنا الكريم - نبأ نوح - وقومه وكانوا من المتكبّرين، ما يثبت به فؤاده أمام غطرسة أثرياء قريش، وشراسة مقاومتهم للدين. فما هو إلا نذيرٌ وبشير، والله فعّال لما يريد.

وهو درس لنا نحن - أمّة محمد - وللعالمين بأن نستمر أفرادًا وجماعات فى تأدية رسالتنا، وتحسين عملنا وصلاحه، وألّا يعترينا اليأس مهما كانت قسوة الظروف وبغى المتسلّطين، وقلّة عدد الأتقياء التابعين.

تعذّب نوح كثيرًا وطويلًا.. لا يكاد يرى ثمرة لجهده العظيم ولا يصحّ غرسه وسط قوم بور، ورماه قومه بما هم فيه من ضلال وسفه والمسألة هكذا دائمًا - ومنذ البداية - عندما لا تصادف الدعوة هوًى فى نفوس أصحاب الجاه والسلطان، ويخشون على مكانتهم وتميزهم ونفوذهم يلقون بتهمة « الضلال » على الداعية، أو « المفكرّ » ويدسّون عليه الحكايات والأقاويل.. ويدعّون عليه بالاختلال والجنون، حتى تخشاه العامة ولا تنصت لما يقول.

وكأنهم - الغابرين - من قادة العالم المعاصرين .. حيث تزيّف الحقائق وسائل الإعلام، وتشدّ انتباه عموم الناس بعيدًا عن دعوة الحق والإصلاح.

تشابهت قلوبهم - ومنذ عصر نوح - وامتدّت نفس الأساليب بصيغة المضارع التام إلى حافة نهاية القرن العشرين.

استنكف الثراة والمترفون أن يضمّهم دينٌ واحد، وتنظيمٌ ربّانى موحّد مع البؤساء.

دائمًا مقياسهم الثراء والجاه والنسب.. أما حقيقة الإنسان وعلمه وعمله فدون مستوى المقاييس، ولمّا ضاقوا بمحاوراته وجداله.. وصدق منطقه وقوّة حجّته هدّدوه بالرجم والتعذيب. بل وزادوا فى صلفهم وتحدّيهم « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » هنا أوحى الله إلى نوح « أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا » والفلك لم تكن معروفة بعد - فى ذلك الحين - لكنّ الله علّم نبيّه نوح وألهمه كيف يصنعها ويقيم بناءها، ويثبت بها قوانين طبيعية وقواعد حركة الكون.

لدرجة أنه جاء ذكر الفلك، وسط الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله (**إنّ فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس**).

واحتار العلماء أن يجىء ترتيبها متقدّما وسط الآيات الكونية، مع أن للإنسان فيها صنعة.

وأعتقد أنها جاءت كذلك ، لأنها دليل هداية ورحمة أيضًا فالله سبحانه جعل نوحا يصنعها بوحيه وعلى عينه.

كانوا يسخرون منه كلما مرّوا عليه ، وتعوّد نوح الصبر وتمرّس به..

إن الكسب السريع فى بداية معركة أو مباراة لا يحدّد مصير الحرب أو المباراة النهائية..

صبر نوح على مرار السخرية وغشم الجهل ، وتنطّع الجهال.. حتى يرى الله أمرًا ، ولنعلم « من يأتيه عذاب يخزيه » وفى ذلك آية لنا.. الصبر معلّمنا وملهمنا طوق النجاة ، وحاجز الأمواج وراية الخلاص..

الصبر الخصيب الذى يحمل نواة الاحتمال والاستمرار والمثابرة ومجاهدة مشاعر اليأس والملل والقلق ، حتى تحت أقسى الظروف وأصعبها.

وجاء موعدهم - مثل كل الملأ المتكبرين - فار التنور وفتحت عيون السماء ، وارتفع الموج كالجبال ، وأحيط بهم..

وصف مشاهد الطوفان إعجاز بيانى من لدن حكيم خبير.. أبرزت بريشة المصور المبدع ، صورا فائقة مروّعة صاخبة الحركة.. عنيفة الإيقاع حتى « المفردات » تعطى الحركة مجسمة حتى « ليحيط » بنا الموج وندرك عن يقين ألاّ ملجأ من الله إلاّ إليه..

ثم تهدأ العاصفة ، ويأتى الأمر الإلهى (يا أرض ابلعى ماءك

وياسماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر).

تبهرني دائمًا قصة نوح ذلك الملاح الماهر، والربّان المنقذ للفلك المشحون، والأرض من حوله تغتسل بالطوفان من المفسدين المستكبرين..

ويوما لم يكن لى ملاذ سوى وقفته النبيلة، وهو ينادى ابنه، ويدعو ربه.

كنت أركن للفرار فى حمى ذلك الفلك المشحون.. أضمد جراحى وأربط على قلبى، وأعيد قراءة الموقف العصيب.. حتى يغطى الماء كل شيء أمامى، وتبيض عيناى من أثر الدموع.

أعيد التلاوة كل حين، والسفينة تجرى فى موج كالجبال، ويلتاع منك الفؤاد حين يخذلك « الولد » ويهجر مركبك، وتذروه الريح العقيم أمام ناظريك، ويضع أصابعه فى أذنيه، لا يسمعك وأنت تناديه مع نوح - الأب الجليل - والنبى الصبور.. (**يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين**).

لكن.. « الابن » يركب رأسه، ويجدف فى بحر الظلمات مع العاصين المتكبرين، يبحث عن جبل يأوى إليه يظنه «يعصمه» من أمر الله، ويحول الموج بينكما ويكون من المغرقين.

مثل نوح المهيب ينتابنى الضعف الإنسانى الجميل، وتشد قلبى مشاعر الحب والرحمة والرغبة فى إنقاذ الجسد الحبيب.

وينادى نوح ربه (ربِّ إن ابنى من أهلى) وتجيء كلمة الله

(قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين).

ويرتد إلينا النفس، ونعيد تلاوة الآية تحوّل المشهد إلى طوق نجاة، نرتفع به فوق ظهر السفينة، وباسم الله مجريها ومرساها.. نجّانا الله برحمته من كيد الماكرين.

وتدركنا الصحوة.. يتيقظ منا الروح والفؤاد، وتبرق أمامنا لحظة التنوير، وتسطع ذروة الاكتشاف المنير، هناك صلة أقوى من صلة الدم، وصلة الرحم، رابطة الدين وأخوة الإيمان..

إن من يخالفك فى العقيدة ويترك طريق الهداية ويتبع خطوات الشيطان، وينتمى إلى الملأ المترفين المتكبرين – ليس من أهلك – ولو كان ابنك من أحشائك أو من صلبك و « عمل غير صالح » أن تحنو عليه وتمدّ له حبال المحبّة والرحمة وتجامله فوق الحق، وتحاول أن تحابيه.

إن أخوة الإيمان والمحبة فى الله، وشيجة أقوى وأعمق وصلة أكثر ارتباطًا وقربًا، والإيمان يتطلب منا النزاهة والاستقامة والعدل.. النظرة الموضوعية للأشياء والناس، والحق أحق أن يتّبع.

وهو درس على أعلى مستوى إلى من يتولّون أمور الناس.. والذين ينظرون إلى صلات القرابة والوراثة والنسب ويقدمون ذوى قرباهم ويمنحون مكان الصدارة واستغلال النفوذ والانتفاع بالسلطان.

وتظلّ سفينة نوح دائمًا الحقيقة والرمز، من يتّق الله وشاء أن يستقيم ويعمل صالحا تكتب له النجاة..

أما الذين يبغون فى الأرض بغير الحق، فيأتينا دائمًا نبؤهم.. تأخذهم الصيحة، ترهقهم المذلة، ويحيق بهم الخزى والخذلان.. يحيط بهم الطوفان ويكونون من المغرقين.

والسفينة الرمز أبدًا قائمة وموجودة وحاضرة.. مرفأ نجاة لمن يسلم وجهه لله وهو محسن، مركب ساطعة، مشرعة صاريها نحو السماء، ترمز دائمًا لأن تكون « جمعا » - لا أفرادًا شتى ممزقين.

وأن نحرص على أن نحشر فى زمرة المتقين.

- إننا أمة فى زورق واحد - علينا إدراك هذه الحقيقة.. والالتزام بالمصلحة العامة لأمة الإسلام، وجماعة المؤمنين..

مركب - كأنها الحياة - رحلة مستمرة، دائمة الإبحار والعبور وباسم الله مجريها ومرساها.

صاحب الحوت

ومن منّا لم يفكر فى الهرب ؟

يدير ظهره ، ويدع كل شىء من ورائه .. يترك الهموم الجسام والمشاكل أو التعقيدات ، والمسئولية المتصلة بالناس . يهجر ويهاجر إلى بلاد أخرى بعيدة ، ومدن غريبة وجديدة وموانٍ موغلة فى البعاد والبحار .. يخرج كالآبق إلى الفلك المشحون ويسلم نفسه لنشوة الإبحار إلى المجهول ، يهرب إلى أرض الله الواسعة .. حيث لا يكون معروفًا لأحد ، ولا يعرف أحدًا . ولا يكون مطالبًا بعمل ما أو طرفًا فى مساومة ، وليس ضروريًا أن ينجز مهمة صعبة وعسيرة .

من منا لم يفكر – ولو مرةً – فى الهرب ؟

ولكن إلى أين ؟ كيف السبيل إلى الفرار والهروب المستحيل ؟

أنت كمن يهرب من الله إلى الله .

ستحمل نفسك معك أينما ذهبت .. كيف ستواجه صحبة ذاتك .. وتخلّيك المخزى .. وهروبك المزرى .. وتخاذلك السقيم ؟

ستتبعك عيون تدينك، ونظرات تسخر منك، وأيْدٍ كانت ترتفع إليك تطلب المعونة وتنشد المساعدة، وسيحيطك الهوان .. وخطيئة عدم الثبات والاحتمال، وتحل بك لعنة عمل لم تتمّه وواجب لم تؤدّه ..

وستجد الله حاضرًا (وإليه يرجع الأمر كله) ويوفّيك حسابك . (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت) واثبت أمام الابتلاء، وأصلح من عملك؛ فلا نجاة ولا مخرج إلاّ بالله (لا ملجأ من الله إلاّ إليه) .

وكلنا يونس - الإنسان أو الرمز - نعيش عصرنا الحديث بين الخوف والقلق .. ورحلتنا بين أنواء الحياة، وعباب الصعاب هى نفس رحلته فى بطن الحوت .. كلٌّ منّا تشدّه ريح الشر إلى الهاوية .. ويستولى عليه الفزع واليأس أحيانا « نتهاوى » وحينّا نكتشف أن لا ملاذ لنا ولا سبيل إلى النجاة إلاّ بالتوجه إلى الله والاحتماء بدينه القيم والاعتصام بالصبر والاستقامة والتقوى - كما أمرنا أن نكون - وبذلك يكشف عنا الله الضرَّ ويجعل لنا مخرجًا ونصل إلى شاطىء الخلاص .

الله سبحانه وتعالى - فى قرآنه المجيد - يقص على الرسول من

أنباء الرسل، وأخبار القرى والأقوام الغابرين وما جرت به سنة الله مع عباده المصطفين - من البشر المرسلين - والأمم الظالمة .. ومأساة المكذّبين.

نوع من القصص تثبّت الفؤاد .. تجعله راسخًا فى ثباته كالجبل فى أداء مهمته ونشر دعوته، ونكتسب منها العبرة والعظة، ونتربّى فى مدرسة ربّانية باهرة نتسلّح فيها بأعظم الخلق، ونتدارس التجارب الرائدة، ونشهد العروض القديمة لتراجيديا الصراع وكيف السبيل إلى أخذ موقف الحق والاعتداد بالنفس وجدوى التمثل بالأبطال الأنبياء.

إنه ميراث الأنبياء يصلنا بعزّة الانتماء وجلال المسئولية المتصلة بالله، والعمل الصالح فى أرضه وساحة الاختبار والاختيار.

ونقلّب كنوز الميراث العظيم فنجد حلية الصبر التى اجتاز بها المرسلون والصالحون الشدّة والمحنة، وصنوف الكرب العظيم.

الصبر يستعان به لجميع الأعمال العظيمة للفرد والجماعات .. فى المأساة الخاصة والعامة، وجوهره الثبات وعدم اليأس وإعلان كلمة الحق والثقة بأن (**أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**).

الله وجّه خطابه مباشرةً إلى الرسول :

(**فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت**).

أرسل عليه الصلاة والسلام مبشّرًا ونذيرًا، وهدًى ورحمة للعالمين .. ليس عليه أن يضيق صدره بالمكذبين، ولا يحزن لمن تولّى

وعصى فالله متمّ أمره ، وجرت سنّته فى خلقه - والذين خلوا من قبلهم - أن ينجي الرسل والذين آمنوا ويهلك الظالمين (إنّ أخذه أليم شديد)

يونس النبى قدوة ساعة الشدة ، ومثال للتسلح بالصبر والدعاء إلى الله .. والله مجيب .. فهو قريب ونصير نجاه من الغم (كذلك حقًا علينا ننج المؤمنين) ونحن نتعلم من بعد الرسول - وعلى يديه - درس الاستقامة والصبر .. وعدم العجلة فى أداء الأعمال المكلّفين بها .. وعدم التعجل فى رؤية الثمار للدعوة ، أو استعجال النتائج أو الاقتراب من حافّة (اليأس) البغيض ، كى يكشف عنا الله سبحانه الضرّ ، وينجينا من اليأس ويحبط كيد المستبدّين .

قصة يونس - النبى البحرى - الآبق إلى السفين حكاية دائرية تبدأ بالذهاب « مغاضبًا » .. ثم الوقوع فى هوّة العذاب .. وفى عمق الظلام يتجلى الاكتشاف العظيم ، وتسطع لحظة التنوير ، ويرتد بصيرًا وتنفرج الأزمة ويتألق الحل القويم .

بناءٌ دائريٌّ محكم يبدأ بذروة الموقف والانفعال ثم الهروب ، والصحوة والندم وتصويب الأداء والسلوك .

وتدور المأساة كل حين .. وكل دورة زمان واختلاف الموقع وتسمية الأقوام والشعوب .

ودائمًا نفس النهاية .. فقد كتبها الله حقًا ، والعبرة أن نفيد منها ويثبت صداها فى الصدور ونتفهّم هدفها ومغزاها .

« يونس » ضاق بعدم استجابة أهل قريته.. ويئس من إرجاعهم عن الكفر والضلال، وضاق صدره، وفكر أن يدعهم على ما هم عليه ويفرّ بعيدًا عنهم.

فرّ إلى الساحل، يريد بحارًا تبعده عنهم وتفرق بينهم (**أبق إلى الفلك المشحون**) وما أن أبحرت السفينة حتى أحاط بها الموج وواجهتها ريح عاتية وعاصفة مزلزلة. أيقن ركاب السفينة أن معهم على ظهرها عاصيًا عتيدًا، ومذنبًا خطرًا، وحين وجدوه ألقوه فى اليمّ.. وكان الحوت فاغرًا فاه فالتقمه وقذف به إلى جوفه وابتلعه الظلام: ظلمة البحر وظلمة القهر وظلمة بطن الحوت.

واكتشف وسط دياجير العتمة أن لا فرار له من أمر ربه (**فنادى فى الظلمات أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّى كنت من الظالمين**).

وهى نفس تجربة « السجن » ليوسف الصديق.. الوحدة والوحشة والقهر، ولا أمل فى الخروج وانفراج الأزمة.. لكن لا ينقطع الرجاء من رحمة الله، وقدرته ولا كاشف للضر إلا هو - فيحوّل الإنسان وحدته إلى عبادة، ووحشته إلى تسبيح وذكر لله. ويحالق اليأس من حوله إلى رجاء ودعاء بالعفو والحماية. ويستجيب العفو القدير.

إنه ابتلاء يجعل النبى « أمةً » والرجل « إمامًا » عادلاً تربّى من لدن الخالق أن يكون رحيمًا، عطوفًا ودودًا بالخلق أجمعين.. يوثق

صلته بهم، ولا ينى عن الاهتمام بهم.. والعمل من أجل خيرهم، ودعوتهم إلى الصلاح والتقى. وهكذا يواجه الإنسان نفسه وسط تفاقم الأزمة.. ويتطهّر بالمحنة، وبعدها يعود صافيًا، محبًّا يأخذ الآخرين باللين والموعظة الحسنة ويمدّ لهم فى حبال الصبر والرجاء - هكذا عامله مالك الملك - القوى فكيف يضيق وهو العبد بالآخرين.

إنها معجزة البعث من جديد والنشور.

آية ألّا مهرب من حكم الله يأتى الله بنا جميعًا أينما نكون - يرقبنا ونحن فى بطن الحوت فى التيه.. وداخل بروج مشيدة وحصون - وعندما يكتب لنا النجاة والخروج كأنما بعثنا من جديد - ونعود ربانيين أتقياء وأنقياء. الهروب موقف لا يليق.

فيه خسران وخزى وأذى..

علاج أىّ موقف بالثبات والمواجهة والتصدّى للمعوّقات وقوى الشر، والمفسدين فى الأرض.. وكلّ من يبغونها عوجا.

يونس - المعجزة والرمز - هو كلّ داعية، أو مفكرّ ومصلح.. من له شهادة - يجب أن يؤديها -

مهما كانت دونها الصعاب، وبحار العذاب وسفن الخطاة والملأ المتكبرين: يجب ألا يزهق صبرنا، ونملّ أو نهرب.. أو نبرر قرار الفرار وخزى الهروب.

ونتعى زماننا ونستجدى الإشفاق والمعذرة: فقد حيل بيننا وبين

رسالتنا أو دعوتنا للخير.

ولم نتمكن من إعلان الشهادة، ونكتم الحق فى صدورنا ونولّى الأدبار نهرب.. نهاجر.. أو نأبق إلى فلك مشحون.

ستظّل اللعنة تطاردنا، والمعصية فوق رءوسنا.. لا مهرب ولا مفر..

قد يمكننا الابتعاد، والنجاة بهيكلنا الجسدى.. ولكن النفس التى يملكها الله علينا ستظل مؤرّقة محرّقة.. وآثم قلبك، يحيط بك الخزى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة يرد إلى أقسى العذاب. أيًّا كان موقعنا من الحياة.. وأيًّا كانت المواقف التى علينا اجتيازها مركبّة أو معقدة.

الحلّ ليس فى تجاهلها أو الهرب منها، والنجاة لا تكمن فى الفرار.. ومهما كانت الظروف صعبة وعسيرة فلا يمكن لنا كأفراد وجماعات أن نتخلّى عن أمتنا، وعن أداء مهمتنا.. عمّن يطلبون العون والغوث منا.. من ينتظرون كلمة، قولة حق، أو إيناس بالفكر والمعرفة.

إنها دورة مضنية - كقصة يونس - لابد أن نعود فيها من رحلة الغياب والهروب، والوقوع فى أسر السجن أو قلب الحوت.. لابدّ من الصحوة واليقظة والعودة إلى ساحل بلادنا، والعمل من أجل أهلنا وعيالنا.

نعود إلى بلدنا.. إلى ساحلنا الجدب أو النضير لا يهم أن تكون

قرية ظالمة، أو بلدة نينوى القديمة..

وأيّ من الأمصار تجرى من تحتها الأنهار.

المهم أن تتحقق معجزة الخلق فينا.. ونبعث بقدرة الله الحفيظ العليم نعود جديدين.. أقوياء، محبّين.

والحق أحقّ أن يتّبع وأولياء الله (**لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**).

سحرة فرعون

يقصّ علينا الحق سبحانه وتعالى - فى كتابه العزيز - من أنباء القرى ونبأ جنوده المرسلين.

ويلات الحروب والصراع والفتن، وألوان المعاناة التى تجرعها أتباعه المخلصون ؛ فكم من قرية ظالمة طغت واستكبرت ثم جاءها بأسه العظيم فدمرت، وأهلك الطاغين ومكّن فيها للمتقين وجعلهم أئمة ووارثين حقا.

والهدف من القصص القرآنى ليس مجرد الإخبار أو العلم بأحوال البشر وعلم التاريخ.. لكنها قصص فنية محكمة فصّلت آياتها، وبرزت المواقف فيها فائقة مبهرة تدفعنا إلى التأمل والغوص لتمثّل المعنى والرغبة فى التسامى والارتقاء.

أحداث وشخصيات ونحن تصهر الذات، وتقيم النفس وتثبّت منّا الفؤاد والأقدام.

إنها لا تتبع طريقة السرد العادى وترتيب الأحداث، بل تبدأ من قمّة الموقف وذروة الأزمة فيه، ثم تصل بنا إلى لحظة الاكتشاف والتنوير.

تجعل اللحظة التاريخية لحظة إنسانيةً مشعة زاخرةً بالمعنى تنمى لدينا متعة الفهم والإدراك والقدرة على الاختيار..

إنها التطبيق العملى لأحكام القرآن، والأداء التمثيلى للمنهج والمسرح المشيد على أسس الجمال والعدل وحرية الاختيار. وبذلك يشعر الإنسان البسيط، والفرد العادى أن بوسعه أن يكون امتدادًا لجماعة المؤمنين الصابرين.. وأنه ليس مجرد « فرد » بل يمكن أن يكون « أمةً » جماعيته تتبع بمن ساروا قبله على المنهج واستقاموا على الطريق وأدّوا فريضة الجهاد.

مهمته فى الحياة موصولة بمسئولية أولى العزم من الرسل.

ويبدأ أحد فصول قصة موسى.. بقمّة الأزمة حدث مواجهة علنية مع فرعون وملئه المتكبرين وهامان وقارون.. ساحة فسيحة حشر فيها فرعون كلّ ساحر لديه عليم.. وتجرى المباراة فى « السحر » علنية وتحت أعين الجماهير.

كان فرعون وسحرته على ثقة من الفوز فى « اللعب »، ففنون الخداع والإبهار والتمويه أتقنوها من قديم..

فرعون يستعلى فى الأرض « ويتكبر فيها » - أشدّ من معصية إبليس - ويقول أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين.

وملؤه الأثرياء المترفون كانوا قوم سوء وسمّاهم الله المجرمين، وتفاقم غرور السحرة لدرجة طالبوا (**إنّ لنا لأجرًا إن كنّا نحن الغالبين** ، فرعون (قال نعم وإنكم لمن المقربين).

- يا الله منذ القدم ويستشرى بين الممالك ذلك الوباء اللعين، أن يقرب الملوك بعض الفئات ويكون ذلك أهم من الأجور والهبات. المهم بدأت المباراة، واتفق أن يلقى السحرة.

(**سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم**).

ولكن تجلت قدرة الخالق (**فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون**).

وأدرك السحرة أن هناك قدرة فائقة وخروا ساجدين معلنين إيمانهم، وكانت لحظة امتحان عصيبة، وزيّن لهم غرورهم بأنهم منتصرون فلما غلبوا .. فى هذه اللحظة المذهلة المهولة كادت تفقدهم توازنهم وصوابهم ومضت الحقيقة، وتوهج الإدراك بقوّة خارقة ليس كمثلها شيء، فتبدلت اللحظة من الخسران المبين إلى كسب أنفسهم واستلهام الحق وولوج عالم الإيمان الفسيح.

كسب موسى جولة المباراة الأولى .. واستبدّت بفرعون قوى الشر والغضب لم يتصور أن تفلت قبضته على زمام الأمور ..

(**أخذته العزة بالإثم**) (**آمنتم به قبل أن آذن لكم**).

وهم هكذا دائمًا - الطغاة - منذ فجر التاريخ ينقلبون على

أنفسهم إذا ما استبدّ بهم الغضب - أو حدث ما لا يتوقعون - بدل التبسط والمرح ووعود الحظوة والمكانة لديه - بدأت قائمة الاتهام، وتصيد التهم والبطش بهم.

- إن هذا لمكر مكرتموه.

- إنه كبيركم الذى علمكم السحر.

- هى مؤامرة فى المدينة لتخرجوا منها أهلها.

- ثم أمر بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم على جذوع الشجر..

وانفض المولد.. وتقوّضت ساحة الألعاب السحرية.

وحزن موسى المنتصر، وكتم المصريون ألمهم ودموعهم وتحصّنوا فى مظهر السلبية واللامبالاة وانصرفوا واجمين.

ولكن هل ينتهى الأمر عند هذا الحدّ لدى آل فرعون وجمعية المنتفعين بسلطانه وهيلمانه؟

- هل ستترك موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويتركوا عبادتك وتأليهك.

- وهل يغيب عن فرعون مثل هذا الأمر؟

قال لهم: مهلاً (وإنّا فوقهم قاهرون)

فهو يدبر لهم ما هو أشدّ من الاضطهاد العام والقتل..

سيقتل أبناءهم ويدع نساءهم تحيا.. وتكون فئة مقطوعة المستقبل والنماء، تحيا بذلة وخنوع.

وفى المقابل لم يفعل موسى ولم يقل لقومه إلّا (استعينوا بالله واصبروا).

تبدو المسألة غير متكافئة.

هذه الخطة الجهنمية تعدّ لهم.. ومكر السوء يحيط بهم، وهم قد أوذوا من قبل أن يأتيهم ومن بعد أن جاءهم.

ولكن الصبر هو اللبنة الأولى فى مدرسة الجهاد المقدس..

وهو الدعامة على طريق الاستقامة والنضال على المستوى الخاص والعام.

الصبر: هو النغمة الأساسية لتدريبات القوة والتفوق وتمارين كمال الإنسان.

كل الشعائر الدينية تقود إليه وتتطلبه: الصلاة والصيام والقيام.. لكنه الصبر الخصيب الذى يستقوى به الإنسان على الشدائد ويواجه المحن.. ويطهر نفسه ويعد لكل أمر عدته ويتدرب به على الصمود والاحتمال.. الصبر راية الشهادة، وسلاح الشهداء وقد قال السحرة لما آمنوا وواجهوا الصلب والتقطيع (ربنا أفرغ علينا صبرا) وقد يفسر هذا حكمة المصريين القدماء.. الذين تحصنوا بالصبر طويلاً وغنّوا له المواويل ووصفوه تعويذة شفاء لأجيالهم وأحبائهم.. كانوا يحرثونه فى الأرض، ويحصدون ثماره، ويؤمنون قبل الرسل والديانات بإله خالق قدير هو « الزارع » الباقى القديم لكل الخيرات.

وقد تفسر تلك الحكمة التلقائية « الصابرة » موقف عامة المصريين فى مباراة السحر العظيم، زمن فرعون وموسى..

موقف استعصى على الدارسين والراحلين المرتحلين - فى القرآن الكريم - لدرجة أن زميلاً طيبًا - بالغ المكر والذكاء - قال ما معناه أنه شديد الخجل من أجداده المصريين القدماء حقا هو يعرف أنه ليس عليه وزر عملهم لكنه تاريخيا وجدوديا يشعر بخجل وعلى استحياء!

حضروا حفل الحوار بين موسى وفرعون، والمباراة الكبرى بين السحرة ونبى الله، وظلّوا - صامتين - حتى النهاية.

وبعدها لم يتخذوا موقفا، ولم ينصروا موسى على فرعون.. ولو بالإشارة أو حتى تقبل العزاء فى « سحرتهم » الذين تحولوا فى لحظة إلى شهداء صامدين وأبطال.

تولّوا - صامتين - كأن الأمر لا يعنيهم، ولم تكن المسألة لديهم سوى فرجة انتهت عند هذا الحد وليسوا مدعويين للتفكير.. أو التأمل أو الإيمان، أو مناقشة ما جرى أمامهم من أحداث.

ولكن هذه هى حكمة وعبق شخصية المصريين القدماء وكل حين

سر هؤلاء الفلاحين العظام الماكرين يبدون عدم الاهتمام واللامبالاة لأنهم يدركون فى لحظة - أن القوة ليست فى جانبهم فى ذلك الوقت - وأول شارات النصر أن تقدّر قوّتك ومدى قوّة خصمك حتى تعدّ نفسك وأسباب قوتك.

أدرك المصريون فى ذلك الزمان أن الأمر يستلزم منهم الحيطة والصبر والإعداد لذلك يسبحون فى شعور الغفلة - التمثيلية - ويعتمون نظرهم بالفرجة ، كأنّ الأمر لا يعنيهم ولا هى بلدهم ومستقبلهم وبنوهم حتى تحين الفرصة ، ويتكاتف الجميع ثم يهبّون هبّة رجل واحد.

موسى يطلب من قومه - بأمر الله - الصبر والمصابرة حتى يأذن الله لهم بالخروج ، ويغرق الطاغية أمام أعينهم ، ويصبح عبرةً على مدى الأجيال والعصور.

ولكن دون ذلك كفاح طويل..

وتحسين فى العمل والأداء ، وصبر مضن ،وعمل دائب كتوم.

وذكر لله واستعانة به وتقرب وطاعة لأوامره ونواهيه.

والمصريون - كعاملين فى الزراعة - رضعوا الصبر والمعاناة ومعالجة الشرور والآفات فلزموا - بتلقائية - ذلك النهج الحكيم.

وفى ماضيهم القريب والبعيد ، كانوا يعزلون ظالميهم ومستعمريهم .. ويظلون كالنحلة الشغالة يفرزون تلك المادة العازلة بينهم والطغاة حتى يسقطوهم تمامًا من عرش قلوبهم ، ومن مسرح الحياة .. وقد رأوا ما أحدثه فرعون فهل كان من الحكمة زيادة عدد الضحايا فى هذا اليوم الأسود الحزين ورأوا رأى العين - كيف يأتمر الملأ بموسى.

وعندما تجاسر رجل رشيد من بينهم وتساءل ببساطة..

(أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله)

وكيف هاج فرعون وماج، وعدّ ذلك تطاولاً. وأن الرجل تجرّأ على الحمى والسلطان وغضب أن يشير واحد من الرعية إلى أساليب المنطق والقياس الصحيح.. وسفّه رأيه على الملأ وهدّدهم جميعًا وأعلن (ما أريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد).

كل هذه عظات ودروس مستفادة كانت تعمل فى وجدان الشعب وعقله وتمدّه بأسباب اليقين والإيمان وتشير إلى طريق العمل الصالح.

إلا إبليس

وتتنزل علينا قصة الخلق الأوّل، إرادة الله أن يجعل فى الأرض خليفة.. وماذا كان فى اللحظات الأولى من البدء.. قصة لا مصدر لها إلا الخالق سبحانه.

مخلوق من طين.. قيل له كن فيكون، ويعلّمه الله الأسماء وينفخ فيه من روحه ويهبه عقلاً وحكمةً؛ ويزوده بحرية فسيحة ويمدّ له فى التجارب والاختبار.

هو النغمة الأساسية فى لحن الوجود، وكلٌّ مسخّرٌ له ومن أجله.

وعندما تتفتح أعيننا، ويعمل الفكر فينا.. ويستبدّ بنا السؤال.. كيف جئنا وما حكمة الخلق فينا؟ وتلك الرحلة المذهلة لنا على الأرض - فيها نحيا وفيها نموت، ومنها نخرج بإذن الله - نجد تلك

القصة الملهمة بين أيدينا.

تتلو علينا نبأ الخلق، وتثبّت منا الفؤاد.. وتذكرنا وتصل بنا إلى قمّة المعنى والهدف..

هى المسرحية التى أعيد الحدث الرئيسى فيها كثيرًا.

وتجسّد لنا الموقف من كافة أبعاده وزواياه.. وتستبدّ بنا نشوة الإبهار، والإعجاز الفنى المحكم، ونتابع ذات الموقف: وكل شهوده والخالق القيوم والأبطال ووحدة الزمان والمكان.. لكن فى كل مرة يضاف جديد ويسطع الموقف، ويتضح أكثر ويتجسد من زاوية أبعد..

إنها المسرحية الدائرة منذ البدء..

والعرض مستمر وإن تغيرت الأسماء والأشخاص والمواقع والعصور لكنها ذات القصة والصراع الدائم، والأزمة وتطورها والوصول إلى القمة والنور..

بداية درامية.. تبدأ من قمّة الحدث معجزة الخلق، وعداوة الشيطان وذلك الصراع الأبدى ويوفّى كل منا حسابه.. ماذا كان موقفه من الإغواء وكيف كان أداؤه على مسرح الحياة؟

سجدت الملائكة لأبينا آدم إلا إبليس أبى واستكبر.

وأجاب عن ذلك:

أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين.

أضاع نفسه بحمقه وغبائه، وتحصّن فى كبرياء زائفة زينت له

سوء عمله إذ تأبى أن يسجد لمادة هى من وجهة نظره . دون خلقه .

ونسى المأفون أن الله سبحانه وتعالى خالق النار والطين هو الذى أمره .. خطيئة إبليس تكمن فى « الكبر » جعلته من العصاة الضالين ، وجلبت عليه اللعنة طرد من الجنة إلى الأبد (فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) الجنة ليست مأوى .. « للمتكبرين » .

والذين استكبروا فى الأرض تحيط بهم نفس لعنة إبليس .. ولا يدخلون الجنّة وهم عذاب مهين .

وكان عقابه يتضمن أيضًا أن يخرج من الجنة (وهو من الصاغرين) أى يحيط به الصغار والذلة والهوان .. هنا تكمن المفارقة .. عقوبة من نوع العمل ، تأبّى واستكبر ووقع بذلك فى خطيئة العصيان وطرد من الجنة .. لكنه يتعذب - فى انتظار العذاب - بالضعة والهوان والمذلة .

كذلك الذين يستكبرون يحيط بهم الخزى فى الحياة الدنيا وفقدان العزة والجلال ، وتهجرهم المهابة والثقة بالنفس وتتلو فى القرآن نبأ الذين استكبروا قوم نوح ..

وشعيب ولوط وملأ فرعون ، وقارون وعاد وثمود .. استعظم قارون وقال (إنما أوتيته عن علم) ودخل جنّته وهو ظالمٌ لنفسه فمادت به الأرض وابتلعته مع قصره وذهبه وغروره .. ومع ذلك لم يتّعظ فرعون اللعين ..

لم يتأمل الموقف .. ويتراجع عن غيّه وكبريائه ، بل لقد طاول

إبليس نفسه فى الخطيئة وفجر عنه.

لم يقل إنه خير من المخلوق .. بل تحصّن بصنعة الله وحسن خلقه فى الدنيا وقال: (أليس لى مُلك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى) (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) لذلك جعله الله عبرة للعالمين، وأغرقه ومن معه أجمعين، وتوعّد كل الذين يستكبرون فى الأرض بغير الحق.

يقول الإمام متولى الشعراوى: «إن الذى يقدح فى قضية دخولنا إلى السلم كافة.. واتباع جميع مبادئ الإسلام: هو الشيطان..

لذلك جعل الله قصته مع آدم مناعةً لنا وتحصيناً من شرّه إذْ إن عداوته مسبقة، وموقفه مع أبينا آدم كان يجب أن ينبهنا لنحذره» ..

خصوصًا وقد أقسم بعزة الله أن يغوينا أجمعين.. ويقعدن لنا على الصراط المستقيم ويأتينا من كل ناحية..

وقد نبهنا الله سبحانه لهذه العداوة والبغضاء، وأعاد علينا القصة.. وروى لنا الحدث من كل جوانبه ومع ذلك - تعمى القلوب والأبصار- ونجد أكثرنا يتبعون خطوات الشيطان !!

والله الرحيم الخالق بعد فترة التدريب لآدم وزوجه، عرض علينا تجربتها المريرة بإغواء الشيطان لها.. وجاءنا من منطقة الغرور إذ زين لها أن الله حرم عليها الشجرة كيلا يكونا ملكين.. أو يصبحا من الخالدين؛ وكان الخطأ بالانصياع إليه (فبدت لها

سوءاتهما) وندما واستغفرا لذلك، وهبطا إلى الأرض ساحة الامتحان العظيم..

كل لحظة فى حياة الإنسان هى مجال للاختيار، ودرجة فى الامتحان.

والله قد أنعم علينا بالعقل وهدى إلى الدين ودلّنا على المنهج والطريق.. إن الحلّ والمخرج أمام أعيننا (لباس التقوى) لباس التقوى هو الذى يدارى السوءة حقًا، ويحمى عوراتنا ويقينا شرّ الكبر والغرور.. والمشى فى الأرض مرحًا..

الدرع الواقى من الذلّة والمهانة، والاستعلاء على الناس وبذل ماء الوجه فى التقرب ممن نظنّهم أقوياء أو قومًا مستكبرين.. كلما صغنا أنفسنا بالدين.. والتزمنا الطريق المستقيم.. وكانت حركتنا فى الحياة صدقًا وحقًّا ونزاهةً وتعففًا.. كسبنا أنفسنا وارتفعت مكانتنا، وسطعت حولنا العزة والكرامة..

والشيطان له حيل كثيرة، وفنون خداع وتزيين لعمل السوء والجهر به إنه يرتدى أقنعةً كثيرةً.. ويأتى متخفيًا بأهواء النفس وعيوبها، ويوسوس فى الصدور وينفث الحقد والغلّ ويمتطى صهوة المغرورين. يقول الإمام محمد عبده: «على الإنسان أن يلتفت إلى خواطره ويضع لها ميزانًا»..

لكنّ حدود الله واضحة، وكلّ أحكامه وضعت من أجل خير الإنسان والحياة..

علينا أن نطهّر أنفسنا من مسّ الشيطان اللعين ، ولا نجعله يزيّن لنا الغرور والكبرياء فهما أصل الشرور.. وأن ننصرف عمّن يستكبرون ، ونجاهدهم ، ونقف فى جانب الحق مهما جرّ علينا من ويلات المعاناة والشقاء ؛ ليس أمامنا سوى حزبين : حزب الله وحزب الشيطان ..

والحرية مكفولة فى الانتهاء والدعوة عامة ، والاختيار حر ، والحلال بين ، والحرام معلوم .. والنتيجة واضحة .. والنجاح والنصر مكتوب لمن يكسب نفسه فى الصراع ، ويحسن عمله وينضم إلى جماعة المؤمنين الأعزاء ..

وقد أنهى الله سبحانه وتعالى الموقف فى قصة آدم وإبليس فى كلّ مرّة أن (فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

صعدنا إلى لحظة التنوير فى المشهد وقمته .. طريق الصلاح والتقوى والعمل الصالح ..

بعد ذلك لا خوف ولا حزن .

وجاءت بصيغة الجمع لأن الإنسان فيها لا يكون فردًا ؛ بل تعود إليه وحدته مع الجماعة ، وتتألق جماعيته وسط جموع المؤمنين .

حوار داخلى !

ما تلك الموسيقى العذبة تنبعث من الداخل ؟ ها قد اختلفت النغمة، واكفهر الإيقاع، وكأن جوقةً من الشياطين تتناطح وتقود العزف المجنون.

وما الحوار الذى يدور ؟.

نخلو مع النفس، نتجوّل فى الأسواق وسط الزحام نسير .. دائمًا يرتفع ذلك المنولوج الداخلى الغريب !

يصل إلى البئر الخفية فى النفس، يلمس المياه الجوفية العميقة .. صوتان يسكنان داخلك .. ينشب بينهما دائمًا عراك وحوار .. يقولان لك : «افعل ولا تفعل» فى نفس الوقت ..

أحياناً يشتدّ الصراع ويضطرب العزف بين متناقضات .. وتحسّ

بخطورة القفز فوق أسلاك شائكة ومتشابكة أعدّت لك .. حتى ينتصر، أحد الصوتين وتتم عملية الترجيح وتصل إلى مرحلة الاختيار، هنا يعود اللحن رائقًا شجيًّا.

وكلّ إنسان فى كل لحظة من الزمان عندما يوازن فى نفسه أمرًا يحسّ وكأنّ الأمر عرض على مجلس شورى فى الباطن..

وأنه قد نشب على الفور نزاع .. ألقى برأى وقامت معارضة تفنّد ما يقال، وتسوق الحجج والبراهين..

يسرى فى الداخل على الفور تياران : أحدهما يجذب إلى جانب الحق، والآخر يصدّ عن اتباع الطريق..

مجلس شورى خاص وذاتى .. ينقسم بين دفاع وهجوم .. دفع وصدّ ؛ ومهما كانت صيغة النزاع جسيمة أم هينة .. قضية حياة أم فك اشتباك بسيط..

فهناك فى المجلس، طرفان يعملان بهمّة، ويصيغ كلٌّ منهما المقدمات ويرتّب عليها النتائج ويقدّم وجهتى نظر متعارضة تمامًا ومتوازية..

ومن الطريقة التى تتبعها أمام مجلسك .. وتيقّظك لكلّ مفردات الجدل والنقاش..ثم الأسلوب الذى تحدّد به انتصارك لأحد الطرفين .. كلّ ذلك يعطى صورةً صادقةً فى النهاية من أنت؟ وما هى وجهة نظرك التى تطلّ بها على الأشياء والحياة .. وحقيقة الموقف الذى تتخذه .. وقيمة عملك فيما تعمل .

ومن المدهش حقاً والمثير للعجب أن الأمر كلّه قد يعرض ويحسم في سرعة البرق .. وقبل أن يرتد إليك طرفك .

- وكأنها إحدى العمليات البيولوجية فى الجسد.

وهى عملية قد مارستها وتدربت عليها وأصبحت من قوام النفس ونظامها الخاص، ولكنها تحدّد الأسلوب والطريق.

وقد يضيع الإنسان ويثقل ضميره بكثرة الخطايا والآثام حتى لا يستفيق ويكتم ذلك المنولوج الدائر الملعون؛ وقد يبدو متردّدًا حائرًا متأرجحًا دومًا بين صوت الحق ونازع الباطل .. وبذلك يفقد اتزانه وسلامه مع نفسه، ونفعه لمسيرة الحياة ذاتها. والعاقل من يمسك بزمام الأمور داخله، ويجعل ذلك الداخل نظيفًا مشرقًا .. ويقود الحوار ويثرى الجدل..

وينفتح أمام الحلول الصحيحة والحقيقية التى يثيرها والمشكلات .. ويغلق كلّ نوافذه لصوت الشيطان الشرير الذى يضمر له الغواية والخذلان.

والشيطان هو أصل الشرور.. هو الأساس فى ذلك الصراع الفائر، والحوار المحتدم والتناقض بين القول والحركة.. بين ما يبديه الإنسان وما يخفيه..

وأصل الحكاية تمتدّ إلى نقطة البدء..

عندما خلق الله العظيم الإنسان - فى أحسن تقويم - ووهبه علمًا وحكمةً، وميّزه بقوّة التفكير عن سائر الكائنات، وجعله يفرض

عليها سيطرته وإرادته ..

دانت له كلّ المخلوقات بالخضوع .. إلا «إبليس» أبى واستكبر لذلك فالصراع معه منذ بدء الخليقه مرير، والإنسان فى معركة دائمة معه.

أمام الإنسان طريقان لا ثالث لهما.

الطريق المستقيم، وطريق الضلال .. أمامه حزبان - مهما تعددّت البرامج والأيدولوجيات؛ حزب الله وحزب الشيطان.

معركة شرسة مستطيرة .. ذلك الشيطان متمرّد وعصى - يوسوس فى النفس ويوغر الصدر، ويغرس بذوره السوداء الشائهة ويدعوك للتكبر والعناد والغرور..

هو جنّى مستكبر، يرى قمّة عمله الشرير هو غواية ذلك المخلوق الإنسان - الذى يعتقد أنه أفضل منه - وهو لا يستحق علوًّا فى الأرض ولا خلافة ..

انتبهوا ..

ذلك اللئيم الخنيس يعشش داخل النفس .. أحد الصوتين .. تسمعها باستمرار - لكنه رذيل خسيس يزعق ويصيح ولا يتبع الأصول المرعية فى الحوار والحديث ..

يعزف على كلّ الأوتار الضعيفة والمستهلكة داخل الإنسان ..

ويزيّن له «سوء عمله حسنا» وينبش فى الجروح والآثام والأحقاد ..

لكن الله العادل الرحيم لم يتركنا نهبًا للصراع .. ألقى علينا أمانة المسئولية والحرية بوسعنا أن نختار، ونهتدى بالعقل إلى الطريق الصحيح.. إلى نور الحق والعدل..

وزوّدنا بفطرة سليمة نميّز بها الخطأ والصواب..

وغمرنا بفضل من عنده بهداية الدين، علّمنا الكتاب والحكمة، وأودع روحنا ذلك النور الإلهى الذى يهدينا بسواء السبيل ويمكّن لنا بلوغ كمالنا الإنسانى المنشود..

فتظهر حكمة الله فينا، ونستحق أن نكون خلفاءه فى الأرض.

يمكّن لنا.. فى عملنا اليومى والبعيد.. فى جهادنا مع الواقع.. ومع النفس..

عندما نهمّ بأمر فيه وجه للحق ووجه للباطل أن نعرض الأمر على مجلس شورى داخلى مستنير، يقول قولة حقّ.. لا ينافق ولا يبرر ويصدر قراراته عن إرادة خير تلزم بالاستقامة والنقاء وحسن الأداء.

نحيله إلى «مجلس ثورى» مزوّد بهداية الدين.. وبحصيلة خبرتنا من العلم والمعرفة ويقتدى «مسيرة» الأحرار والصدّيقين والنبيين.

– وبرغم أنه عمل ذاتى باطنى وخاص إلا أنّه المحرك الحقيقى لحركة الإنسان.. وهو «الموتور الروحى» الذى يحدّد موقفه.. ويعدّ «نواة مشعّة» تطلق قوى الخلق والإبداع وتبثّ تيّار الوعى فى المجتمع.. فيعلو البناء «كالبنيان المرصوص».

ويعود العزف «الفردى والجماعى» مؤثراً وموحيًا.

فلننصت جميعًا لتلك الموسيقى العذبة تعمل بيننا، وليرتفع الحوار ويتفتح من جديد.